مقدمة :

التحـــول العظيـــم

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة :

التحول العظيم

شهد النصف الثانى من القرن العشرين من المتغيرات المتسارعة ما جعل البعض يؤكد أن التغير المتسارع هو أكبر وأخطر تحديات المستقبل البشرى[1] . فالإنسان لا يمتلك قدرة الحشرات على الإنسلاخ والتحول من طور إلى آخر لكن الله خلقه بقدرات أخرى يتفرد ويتميز بها . لقد وصف بكونه الحيوان العاقل والمفكر وصانع التاريخ والأدوات ... إلخ ، وكل هذا حق . ودون أن نزيد الأوصاف تعقيداً ، سنحاول أن نقدم ما يفسر مسيرته . لقد جمع فى قدراته الفطرية الثرية بين أوصاف تبدو متناقضة إذا نظر إليها بخفة ، لكنها تبدو متكاملة ، إذا ما نظرنا إليها فى ضوء مسيرته المتميزة . فالإنسان حيوان « معرفى / إيديولوجى » ، يولد الجديد من المعارف النظرية والتطبيقية ، ويؤطر بعض معارفه فى إيديولوجيات يتمسك بها . وهو حيوان « محلى / منتشر » ، ينتمى إلى مكان فى الكوكب والكون ، ويحلم باقتحام كل مكان آخر ، مدفوعا بنزوعه للمعرفة ، وبرغبته فى كوكبتها ، بل وكوننتها ، لو صحت التسمية . وقد أوصله التفاعل بين قدراته وبين الكون إلى التغير المتسارع المذكور . فبعد رحلة طويلة من علو نبرة المحلية والإيديولوجيا خلال تاريخه الحضارى، زادت قدرة الإنتشار وعلمية المعرفة ، على حساب المحلية والإيديولوجيا ، وأدى ذلك إلى التزايد المستمر فى معدلات التغير المتسارع الذى نشهده ، ونحاول تفسيره وتوضيح آثاره المستقبلية .

إن التسارع يزيد عادة من حدة الصراع بين القديم والجديد ، ومن حاجة البشر إلى التكيف الإيجابى والتوازن المستمر ، لتلافى الهزات الحادة أو إمتصاص آثارها . إن تغيير أنماط الحياة ، والقناعات الإيديولوجية التى تكمن وراءها ، ليست أمراً سهلاً بالنسبة للإنسان ، هذا « الحيوان الايديولوجى » الذى يجد نفسه مهدداً بنهاية الإيديولوجيات . ورغم كونه « حيواناً محلياً » ، إلا أن طبيعته الثرية حملت دوماً بذور التطلع الحثيث إلى الإقليمية والعالمية ، بل والكوكبية والكونية . ولا يمّل من ممارسة ذلك فكراً وفعلاً ، ويدفع الثمن . يأسر نفسه طواعية فى أطر إيديولوجية ويبنى ثقافات محلية ، ويتطلع إلى نشرهما ، فيحدث التفاعل مع الإيديولوجيات والثقافات الأخرى ، بكل أشكال التصادم والتلاقح والتكيف والذوبان ... إلخ . وأحيانا ما يحدث تفاعل متسلسل ، كالذى تشهده الإنفجارات الذرية ، تمتد آثاره الفكرية بقوة وسرعة ، كما حدث بالنسبة لبعض الرسالات والمذاهب الكبرى .

لكن التفاعل المتسلسل الذى شهدته العقود الأخيرة من القرن العشرين يستحق

الاجتهاد فى التحليل ، لنتعرف على أبعاده المستقبلية بالنسبة لنا ولكل البشر . وأظن أن ما حدث فى العقود الخمسة الأخيرة لا يمكن أن نفهمه دون أن نضع أيدينا على أهم ما حدث فى القرون الخمسة الأخيرة ، وأعنى بذلك مباشرة ظهور العلم الحديث ومنهجه باعتبارهما أهم المنجزات البشرية على الإطلاق[٢] . لقد صار التمسك بالمنهج العلمى فى إدارة شئون البشر والتوظيف التكنولوجى لمعطياته لتحسين نوعية حياتهم ، مع الإختلاف الشديد حول بعض أشكال التوظيف وآثارها ، هما قوة الدفع الرئيسية لتقدم المجتمعات وتحديد قوتها وتوفير حمايتها ومنعتها ، بل وعدوانيتها فى كثير من الأحيان . لقد غير العلم معرفتنا بالكون وبأنفسنا وموقعنا ، وضاعف قدرتنا على التأثير فى عالمنا ، وزاد علاقاتنا ثراء وتعقيداً [٣] وأخيراً أدى إلى التفاعل المتسلسل المذكور ، الذى صبغ تاريخ النصف الثانى من القرن العشرين ، وندخل به وبتداعياته الشديدة الممتدة الألفية الميلادية الثالثة . فماذا جرى ؟

لقد شهدت العقود الأخيرة نوعًا جديداً من الثورات ، لم تعهده البشرية من قبل، حتى أنه أثر على مفهوم الثورة نفسه ، بالصورة التى دفعت البعض إلى تصور إحالة « أعز » أشكالها إلى المعاش ، وهو معاش مبكر لأنها لم تحقق كل أهدافها !!! لقد بزغت « الثورة العلمية / التكنولوجية » ، التى جمعت بين المعارف العلمية المتفجرة الجديدة والقدرات المتزايدة على توظيفها أو تطبيقها التكنولوجى فى قوة واحدة ذات تأثير هائل ، وأدى هذا الجمع إلى التفاعل المتسلسل الذى ذكرناه . لقد دخلت البشرية عصر « العلم التقنى »[٤] الذى يختصر أو يلغى الفجوة بين المعرفة (التنوير) والتطبيق (التغيير) ، فتسارع الإيقاع بشدة ، وتغير العالم بنفس الشدة .

ولأننى ممن يدعون إلى فهم العالم بالعلم ، أعتقد أن فهم ما حدث للعالم يمكن أن يمكن أن يكون أوضح فى ضوء فهم ما حدث للعلم . فحتى وقت قريب ساد التصور بأن تقدم العلم وتطوره يتم عن طريق ظهور المفاهيم والمبادئ الجديدة . لكننا ندرك اليوم بصورة أفضل أن هذا التقدم قد حدث ويحدث بشكل أكثر تكرراً بظهور الوسائل وتحديد الأهداف الجديدة ، وفى كل خير . فلا يمكن الإقلال من أهمية مفاهيم النموذج الإرشادى للعلم ونظريات كالتطور والنسبية والحكم ، ولكن لا يمكن أيضاً تصور تقدم العلم دون التليسكوب والميكروسكوب والنموذج الذى حدد طبيعة انتظام مادة الوراثة فى خلايا الكائنات الحية وكاميرا الليزر ... إلخ[٥] .

ولكن ما علاقة ذلك بالعالم ؟ لقد عاشت البشرية – وما زالت ، بل وأرجو أن تظل – تعشق المبادئ وتنَظِّر لمختلف المفاهيم . لكننى أدعى أن التأثر بالمنهج العلمى وبتطور العلم زادا من إتجاهها إلى تحديد الأهداف وإبتداع الوسائل . لقد حلمنا بالحرية ، لكننا اختصرنا الهدف فى آلية محددة هى الديمقراطية . والآن نتحدث عن

ثورة الديمقراطية ، التى تدعم مسيرتها ثورة الإتصالات والمعلومات ، كأحد تجليات أثر الثورة العلمية والتكنولوجية على حياتنا . وتحدثنا طويلا – وبحق – عن حقوق الإنسان . لكننا نضع اليوم القوانين المنظمة للمواطنة والشراكة المجتمعية بلا تمييز . وآمنًا بالعدالة الاجتماعية ، وها نحن نجرب بدرجات مختلفة من النجاح أو الفشل سيطرة الدولة أو السوق أو الطريق الثالث ونبتدع آليات وقواعد لتنظيم النشاط التجارى مثل منظمة التجارة ، ونحاول كبح جماحها فى « سياتل » وغيرها . والخلاصة ، أن « العلم التقنى » أثر بشدة فى ظهور صورة « العالم التقنى » ... عالم الوسائل والأهداف والتغير المتسارع ، المرشح لتجاوز العالمية وصولاً إلى الكوكبية والكونية . فالحديث عن ذلك لم يكن ممكنا فى عالم يخلو من طائرات أسرع من الصوت وكمبيوتر وإنترنت وبرامج فضائية وأقمار صناعية وهندسة وراثية ومواد مخلقة ... والقائمة تطول .

والحديث عن تحول العالم يدفعنا إلى توصيف مرحلته الحالية . فمع الاتفاق على أن أممه وشعوبه تجاوزت الإطار المحلى ، دون أن يعنى ذلك إلغاءه وعدم المحافظة عليه ، إلى العالمية القائمة على تدعيم العلاقة بين الدول وتجمعاتها ، يرى البعض أن الأمر قد تعدى ذلك إلى المرحلة الكوكبية ، التى ترسخ بشكل أعمق إلغاء كل الحدود والقيود . وهذا أمر مشكوك فيه ، بصرف النظر عن مظاهرات سياتل ودلالاتها الكبيرة . إن بعض مطبوعات البنك الدولى نفسه تؤكد أهمية التركيز على العالمية ، ومن بين من يتصدر المساهمة فيها من يرفض إدراج مصطلح الكوكبية فى القاموس!![٦] والحقيقة أن الكوكبية آتية لا ريب فيها ، بل أدعى أن الوصف الأدق للمرحلة الحالية قد يكون فى اعتبارها مرحلة انتقالية ... أى أنها « عالمية / كوكبية » ، يزداد مكون إحداها أو يزيد طبقا للنشاط البشرى ومدى تأثره بالجذور المحلية من ناحية ، وبالآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية من ناحية أخرى. والتحول العظيم لن يكون فى صالح المرحلة الوسطية ، فالعالمية لا تلغى المحلية ، لكن الكوكبية ستؤدى إلى ذبول العالمية ، لتبقى جدلية العلاقة بين المحلى والكوكبى هى الأساس . وإذا ما انتشر الإنسان فى الكون ، كما ترى التوقعات المستقبلية ، وصار من الخطأ اعتبار الإنسان كائنا أرضيا فقط ، ستكون الجدلية بين المحلية والكونية ، وسيكون الحوار بين الثقافات مشتملا على ثقافة سكان الأرض وثقافات ساكنى المواقع الأخرى فى الكون . وإذا نظرنا إلى ذلك باعتباره ضربا من الخيال ، فيجب أن نفكر مليًا فى مغزى كونه « خيالاً علميًا » ، وهو كذلك بالفعل .

فى ضوء هذا التحول العظيم ، كيف نفكر فى المستقبل ؟ وما هى منطلقات هذا التفكير ؟ لقد قدم العلم والتكنولوجيا للإنسان قدرات هائلة على صياغة

المستقبل، لكن ذلك لم يلغ مكون اللايقين وعدم التوقع ، لأن فهم الإنسان لعالمه أكثر نجاحًا من فهمه لنفسه ، ولسلوكه ودوافعه . وهذا « هم مستقبلى » عام ، يلجأ الإنسان بقوة إلى العلم ليتغلب عليه . إنه قاب قوسين أو أدنى من التعرف على البرنامج الوراثى الكامل الخاص به ، كما أن دراسة المخ البشرى تتقدم بصورة غير مسبوقة . وكما أكرر دائماً ، إن خريطتى البرنامج الوراثى والمخ ستمكاننا من إعادة تفسير الظاهرة البشرية ، بشكل ينعكس بشدة على المستقبل ... دراسة وصياغة . لكن التفكير فى المستقبل لا ينتظر . علينا أن ننقد الفكر المستقبلى الجارى ، وأن ندرس إشكاليته الرئيسة ، المتمثلة فى جدلية العلاقة بين المحلية والكوكبية ، وأن نرسم فى ضوء ذلك « الطريق إلى مستقبلنا » ونحدد ملامحه . هذا هو موضوع كراستنا الحالية .

obeikandl.com